ISSN: 2437-041X
مجلة أنثروبولوجيا
DOI :
مجلد: 04 عدد: 08 السنة 2018

نظام الطبقات في المجتمع الهندوسي في ضوء علم الأنثروبولوجيا : كتاب "الهند" للبيروني منطلقا معرفيا

سلمان العبدلي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، تونس

salmen.abdelli@gmail.com

*** الطبقات ظاهرة كونية مرتبطة بالمهن:**

تُعرّف الطبقة (classe) من الناحية اللغوية بأنها المرتبة، فمثلا يُقال للناس طبقات أي مراتب والطبقة القوم المتشابهون[1] و تُعرّف كذلك بأنها " عدد من الناس أو أشياء تجتمع مع بعضها البعض وذلك بسبب بعض المتشابهات و الصفات العامة[2]. ومن الناحية الاجتماعية (social classes) تُعرّف الطبقة بأنها مجموعة من الأشخاص الذين يقومون بأداء دور متماثل في عملية الانتاج الاقتصادي و ينظمّون في سلك موقف واحد إزاء غيرهم من الأشخاص داخل الجهاز الاقتصادي[3]. فالطبقة تعني من خلال كل هذه التعريفات السابقة مجموعة من الناس تربطها روابط اقتصادية أو دينية أو تربويّة أو أسريّة[4].

ويُعتبر التدرّج الطبقي ظاهرة شائعة و عامّة في كل المجتمعات قديمها و حديثها إذ لا يوجد مجتمع غير طبقي أو غير متدرّج على الاطلاق، كما لا يمكن التسليم تماما بأن كل المجتمعات تتضمّن نسقا واحدا محدّدا من المراتب و المكافآت[5]. وقد كان أبو الريحان البيروني على وعي و علم بهذه المُسلّمة لذلك نراه في معرض حديثه عن طبقات أهل الهند يُؤكّد " قد كان الملوك القدامى يصرفون معظم اهتمامهم إلى تصنيف الناس طبقات و مراتب يحفظونها عن التمازج و التهارج و يحظرون الاختلاط عليهم بسببها و يلزمون كل طبقة ما إليها من عمل أو صناعة و حرفة ولا يرخّصون لأحد في تجاوز رتبته[6]."

*** طبقات الهند والتفاعل بينها:**

وفي بلاد الهند يتألّف المجتمع من أربع طبقات مُتباينة و متراتبة تناولها البيروني بالدرس و التحليل، وكل طبقة من هذه الطبقات الأربع تحتوي على مجموعة من الأفراد والأعضاء وتقع على عاتق الفرد واجبات مُعيّنة و تترتّبُ له حقوق بعينها وفقا لمبدأ الطبقة. غير أنّ هذه الحقوق و الواجبات لا تستوعب كل أفراد المجتمع حيث أن هناك امتيازات ومسؤوليات مُعينة تتمتّع بها طبقة دون أخرى وهو ما يُحقق مبدأ التفاضليّة أو التراتبيّة[7].

فماهي هذه الطبقات؟ كيف تنتظم و تتراتب داخل المجتمع الهندوسي ؟ وهل أنّ فكرة تقسيم المجتمع إلى طبقات جاءت نتيجة لقوانين وضعية صارمة أم هي أمر طبيعي مُتأصّل في الجنس البشري ممّا يُكسبها الشرعيّة ؟

1- الطبقات الأربع:

*** الترتيب التفاضلي للطبقات في الهند وعلاقته بالمهن:**

لقد بدأت فكرة الإشارة الى الطبقات التي قامت عليها الحياة الاجتماعية للهندوس في "الفيدا" (Véda). وما يهمنا في هذا الفصل أن نذكر أنّ هذا التقسيم جاء أولا نتيجة طبيعية لتوزيع الأعمال على الناس في المجتمع، فقد اقتضت حياتهم أن يقوم بعض الأعضاء بالطقوس الدينية و الاهتمام بالتعاليم والأحكام و العبادات فتقمّص " البراهمة" (The Brahmans) مثل هذه الأدوار. بينما يقوم بعض الأفراد الآخرين بمهمّة الحروب و الشأن السياسي فأُحيلت المُهمّة " للكشتريين" (The Kshatriyas). وكان من الطبيعي أن توجد جماعة تقوم بالعمل في الحقول و مطالب الحياة الأخرى كالتجارة فكان ذلك "لبيش" (The Vaishyas). وبالتدريج وُجدت الطبقة الرابعة وهي طبقة "الشُّودر" (The Shudras) التي هي أخسّ الطبقات والتي عُرفت بالطائفة المنبوذة. وفي هذا المبحث سنتناول بالتحليل كل طبقة على حدة وسنتبيّنُ ما يخص كل فرد من أفراد هذه الطبقات الأربع، وما يجب عليه أن يفعله مدى عمره انطلاقا من كتاب البيروني.

1.1- طبقة البراهمة : "The Brahmans" العبادة وخدمة الديانة:

في المجتمع الهندوسي يُمنح البراهمة موقعا فائق الحساسية لا يُضاهيه في هذه الصفة أي موقع آخر، و هؤلاء البراهمة هم الكهنة رجال الدين و المعلّمين الذين يُعدّون حملة ثقافة و معرفة و مهمّتهم الحفاظ على الدين و ارضاء الآلهة بالإضافة إلى أمور العدالة والأخلاق، يذكر البيروني أنّ الحكيم "باسديو" Pasdeo حين سأله " أورجن" Orgen عن طباع البراهمة وما يجب أن يتخلّقوا به من الأخلاق أجابه " يجب أن يكون البرهمن وافر العقل، ساكن القلب، صادق اللهجة، ظاهر الاحتمال، ضابط الحواس، مُؤثرا للعدل، بادي النظافة، مقبلا على العبادة، مصروف الهمّة إلى الديانة[8]."

* حياة البرهمان والخيط المقدّس:

مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 04 عدد: 08 السنة 2018 DOI :

ويقسم أبو الريحان حياة البرهمان إلى ثلاث مراحل بعد مُضيّ سبع سنوات من عمره. تمتدّ المرحلة الأولى من سنّ الثامنة إلى الخامسة و العشرين من عمره : ففي سن الثامنة يجتمع أليه الكهنة و المعلمين لتعليمه الواجبات الدينية وما يجب أن يتخلّق به و توصيته بالتزامها واعتناقها مادام حيّا[9]. وهذه الواجبات هي ما يصطلحون على تسميتها في كتاب "الفيدا" (Véda) باسم الدارما (Dharma) التي تُترجمُ غالبا بالدين ولكن الترجمة الأدق لها هي الحقيقة أو الواجبات أو الالتزام و الهدف منها الحفاظ على القيم الأخلاقية وعلى تناغم العالم الطبيعي وتماسكه[10]. وبعد ذلك يمنحه كبار البراهمة خيطا مفتولا من تسع قوى يُقلّدونه به و يُأخذ من عاتقه الأيسر إلى جانبه الأيمن[11]، وتفيدنا المعاجم الأنثروبولوجيا الحديثة بأن هذا الخيط هو خيط مقدس (Sacred thread) يحمله البرهمان رمزا لتمتعه بمنزلة اجتماعية معينة وانتمائه إلى طائفة بعينها و يُمنح هذا الخيط بعد مروره بطقوس التكريس و يضلّ يحمله بصفة مستمرّة[12]. بل يُغالي و يُشدّد رجال الدين في أمر هذا الخيط المُسمّى ب"جُنجُوى" إذ وجب على البرهمن أن لا يُفارقه البتّة يقول البيروني " إن "جُنجوى من لا يُفارقه البتّة فإن وضعه حتى أكل و قضى حاجته خاليا عنه كان بذلك مذنبا لا يمحضه عنه غير الكفّارة بصوم أو صدقة[13]."

*** اغتسال البراهمة اليومي وتقديم القرابين:**

وفي بقية هذه المرحلة الأولى من عمره فإن حياة البرهمن تنصبّ بالأساس على الجانب التعليمي الديني، فمن الواجب عليه أن يتزهّد طيلة هذه الفترة و يُقبل على تعلّم نصوص "الفيدا" بالإضافة إلى علم الكلام و الشريعة ويتولّى أستاذه تعليمه آناء الليل وأطراف النهار[14]. يُشير عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Max weber (1864-1920) إلى أن البراهمة يتعبّدون بتراتيل كتاب "الفيدا" المقدّس في صلواتهم كما يلجأون إليه للعلاج و السحر، و يرى أنه يحتوي على مزيج من السحر و التجارب البشرية التي يجب على كبار الكهنة و المعلّمين تعليمها للتلاميذ على سبيل الخلافة و بالتالي يتوارث تلاميذ البراهمة جل هذه الخصائص السحرية جيلا بعد جيل[15]. ويُواصل البيروني ذكر نشاطات البرهمن حيث يقوم كل يوم بالاغتسال ثلاث مرّات و يقدم قرابين النار بين طرفي النهار لأن التضحيات بدون القرابين في نظرهم تجلب سوء الطالع ثم يسجد لأستاذه بعد الانتهاء من اقامة القربان و يصوم يوما بعد يوم مع الامتناع عن أكل اللحم أصلا[16].

* البراهمة والزواج: التعاليم الواجبة

أمّا الفترة الثانية من عمر البرهمن من سن الخامسة و العشرين إلى الخمسين وفيها يتزوّج بعد أن يأذن له أستاذه بذلك ليقصد النّسل. ويُعدّد أبو الريحان بعض التعاليم الواجبة عليه فمن المفروض على البرهمن أن لا يطأ زوجته في الشهر أكثر من مرّة عُقب تطهّرها من الحائض كما لا يجوز أن يتزوّج بإمرأة قد جاوز عمرها اثنتي عشرة عاما[17]. و يكون معاش البرهمن و زوجته من تعليم البراهمة وكل ما يصل إليه من صدقات فهو على سبيل الإكرام لا الأجرة وكذلك الهدايا التي تُهدى إليه بسبب ما يعمله لغيره من قرابين النار أو عطايا ينالها من كبار الملوك[18]. وقد وجد ماكس فيبر Max Weber في بحثه عن سرّ انتشار الهندوسية في صفوف المبشّرين الذين يطلق عليهم البراهمة أن أهمّ دافع يبقى هو العامل المادي وخاصة العطايا المالية المتمثلة في النقود و الهدايا الثمينة و الأراضي حيث أن البراهمة كان لهم الدور الأساس في بروز الهندوسية فهم يمثلون الطبقة العالمة[19].

ثمّ تسمح القوانين المنظمة للطبقات في الهند للبرهمن أن يدخل مجال التجارة و البيع ومن الأفضل أن يُكلّف أحد أفراد طبقة "البيش" (The Vaishyas) بالمتاجرة له لأن التجارة في الأصل محظورة على البرهمن بسبب ما يُداخلها من غشّ و كذب، أمّا الرّبا فهو محرّمٌ عليه بالإطلاق لأنه رجل دين وعلم و معرفة على حد عبارة البيروني[20].

* المرحلة الثالثة في حياة البرهمان: الخروج من بيت الزوجية

أما الفترة الثالثة من عمره التي تمتدّ من سنّ الخمسين إلى الخامسة و السبعين، فهي فترة النّسك و العبادة و الزهد فمن الواجب عليه طيلة هذه المدة أن يخرج من بيت الزوجية بعد أن يسلّمه لزوجته[21]، ويستمرّ خارج العمران إلى الغابات و الأحراش ولا يستكن تحت سقف و لا ينام إلاّ على الأرض و يكون معاشه من ثمر الأشجار و الأعشاب لا غير ولا يلبس إلاّ ما يُواري سوءته لحاء الشجر[22]. ومتى جاز البرهمن هذه المرحلة الثالثة من عمره بنجاح تام وبلغ سنّها المعينة انتقل إلى أسمى الدرجات و هي المرحلة الأخيرة من عمره.

* المرحلة الاخيرة في حياة البرهمان: التحرّر من الدنيا والتوبة إلى الآلهة

الفترة الأخيرة من عمر البرهمان تمتد إلى نهاية حياته وتمثّل هذه الفترة درجة الفقير فيخرج من حكم الجسد وتحكم فيه الروح فقط ويُحاول التقرّب ما أمكن إلى الآلهة ثمّ يلبس لباسا أحمر ويأخذ بيده قضيبا ثم يقبل على الفكرة وتجريد القلب من العداوات و الصداقات[23]. ويُؤكد أبو الريحان على ضرورة حرص البرهمان في الفترة الأخيرة على الابتعاد عن

ISSN: 2437-041X
مجلة أنثروبولوجيا
DOI :
مجلد: 04 عدد: 08 السنة 2018

التفكير في الشؤون الدنيويّة وذلك بدعوتها إلى التحرر من الشهوات والسيطرة على رغبات النفس وتطلّعاتها المادية. وهذه الدعوة جاءت من منطق أن التحرر من الشهوات يُؤدّي إلى التحرر من الألم و الشقاء ومن ثمّ كان التحرر من الرغبات وسيلة فذّة للتقليل من شقاء الحياة و همومها ومتى التزم البرهمان بهذه الأخلاق وصل إلى موكشا Moksa[24].

2.1- طبقة الكشتريا : "The Kshatriyas " حماة المجتمع والقائمون على أمنه

تتألف طبقة الكشتر من حماة المجتمع والقائمين على إدارة شؤونه وهم حراس باقي المجتمع والقائمون على أمنه وعلى تنفيذ القواعد المختلفة التي تقتضيها الوظائف الاجتماعية الضرورية. وجاء في كتبهم الدينية المقدسة أن البطولة و القوة و الاستقامة والحذق و القيادة تلك هي واجبات الكشتر التي تولّدت في طبيعته، قال الحكيم "باسديو" حين سأله "أورجن" عن طباع الكشتري :" يجب أن يكون الكشتر مهيبا في القلوب، شجاعا متعظّما، ذلق اللسان، سمح اليد، غير مبال بالشدائد، حريصا على تسيير الخطوب[25]."

وتندرج جل هذه الوظائف و الواجبات التي يتعيّن على الكشتر القيام بها لمصلحة المجتمع تحت غطاء ديني و أُلبست لبوسا دينيا فلا ينال رجل الكشتر الثواب و الخلاص في الدنيا و الآخرة إلاّ إذا إلتزم بالواجبات المفروضة عليه، و أن مساهمته في الحروب والحفاظ على المجتمع و رفاهه إنما هو راجع بالأساس إلى كونه قد حفظ الكون الذي خلقه الإله براهم وسوّاه ومن ثمّ فإنه بمجرد ان حفظ هذا الكون وسهر على حمايته فإنه قد حفظ الإله الخالق وبالتالي ينال الثواب الذي وُعد في كتاب "الفيدا"، و ينقل أبو الريحان من هذا الكتاب المُؤسس أن "باسديو" قال لـ "أورجن" (وهو أحد الكشتريين) مشجّعا إيّاه على قتال العدوّ :" أما تعلم يا طول الباع أنّك كشتري وجنسك مجبول على الشجاعة و الاقدام وقلّة الإكتراث لنوائب الأيام إذ لا يُنال الثواب إلاّ بذلك فإن ظفرت فإلى المُلك والنعمة و إن هُلكت فإلى الجنة و الرحمة، فإن كان الله أمرك و أهّل طبقتك بالقتال وخلقك له فأصدع بأمره وأنفذ بمشيئته بعزيمة مُجرّدة عن الأطماع ليكون عملك له[26]."

وإذا ما انتقلنا إلى الناحية الدينية و الواجبات التي تقع على عاتق الكشتري وجبت الإشارة إلى أنه عند استتمام اثنتي عشرة سنة من عمره يتقلّدُ بخيط مُقدّس ويسمح له البراهمة بتلاوة وقراءة "الفيدا" ويحظرون عليه تعليمه للناس[27].

3.1- طبقتي البيش"The vaishyas" و الشودر"The shudras"

أفراد طبقة "البيش"لديهم واجبا يتمثّل في رعاية الحاجات الماديّة للمجتمع كالتجارة والفلاحة، ومن أدوارهم التقليديّة رعاية العمالة الرئيسيّة[28]. أمّا طبقة "الشودر" فهي تتألّف من المنبوذين وأصحاب المهن الحقيرة وينحصر دورهم في أداء المهمّات التي لا يفكّر أحد من البشر بالقيام بها: مثل إزالة المخلّفات البشريّة أو دباغة الجلود أو كنس الشوارع بالإضافة إلى خدمة أفراد الطبقات العليا "ويكون الشودر مجتهدا في الخدمة والتملّق متحبّبا لكلّ أحد بها"[29]. وتجدر الإشارة إلى أنّ الهندوسيين لا يهمّهم في الواقع أنْ يخرج عن ديانتهم هؤلاء المنبوذين وذلك لأنّ التقاليد المحدّدة التي يسيرون عليها (الدارما) تجعلهم غير قادرين على أنْ يتنازلوا عن إمتيازاتهم الدينيّة لفائدة أعضاء هذه الطبقة. فليس يخفى على أحد منهم أنّ تنازلهم هذا إذا وقع يؤدّي إلى قلب كل تعاليم الديانة الهندوسيّة[30].

2- في مبدأ التمايز بين الطبقات:

*نظام طبقات والتمايز بين أفراد المجتمع:

اتّسم النظام الطبقي و الطائفي في الهند بالانغلاق و التمايُز بين أفراد المجتمع الواحد ووجود حدود صارمة بين الطبقات لابدّ من احترامها ولا يجوز لأيّ شخص أو جماعة أن تتخطّاها. هذا التمايز أنتج مفهوما جديرا بالاعتبار هو مفهوم الطبقة المغلقة (caste)[31]. فالأعضاء المستقلّون هنا ليسوا أفرادا أو شخصيات ذاتية و إنما هي تمييزات طبقيّة مغلقة مصدرها الطبيعة أساسا[32]. أي أن هذا التمايز لم يكن نتيجة لسلطة ظالمة بل بمقتضى ديني و أمر محتوم إلهيّ تمّ تشريعه في كتبهم الدينية المقدّسة. فالإله براهما قد خلق الخلق على هذا النحو الذي هم فيه "وهذه الطبقات في أوّل الأمر أربع علياها البراهمة قد ذُكر في كتبهم أن خلقتهم من رأس براهم وأن هذا الاسم كناية عن القوّة المسماة طبيعة فالبراهمة نقاوة الجنس ولذلك صاروا عندهم خيرةُ الإنس. والطبقة التي تتلوهم كشتر خُلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جدّا، ودونهم البيش خُلقوا من فخذي براهم وتتلوهم الطبقة الأخيرة شودر خُلقوا من رجلي براهم[33]."

* التصنيف التراتبي: طبقة البراهمة "طبقة النخبة المرتبطة بالمقدس"

وفقا لهذا التصنيف التراتبي الذي تحدث عنه البيروني تتراءى لنا طبيعة كل طبقة من الطبقات الأربع، فطبقة البراهمة قد شكّلت النُّخبة[34] المتميّزة عن باقي الطبقات بامتلاكها لخاصية التفوّق و القدرة في المجال الديني أي أن هؤلاء البراهمة قد ارتبطوا بالمُقدّس

مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 04 عدد: 08 السنة 2018 DOI :

وترسّخت في الوعي الاجتماعي أنها تحكم وفق نظرية التفويض الإلهي و أن الآلهة اصطفتهم للحكم نيابة عنها. حتى أضحت قراءة الكتاب المقدّس "الفيدا" من مهام البراهمة فحسب ولا يجوز لطبقة الشودر Shudra مثلا تلاوته أو حتّى مجرد لمسه بل إنّ مهام الشودر خدمة رجال البراهمة في سائر حياتهم اليومية و يتصرفون تحت أمرهم كعبيد "أمّا شودر فهو للبرهمن كعبد يتصرّفُ في أشغاله ويخدمه... وكلّ عمل يخصّ البرهمن من التسابيح و قراءة "بيذ" (Véda) فهو محظور عليه حتى أنه إن صحّ عليه أنه قرأ بيذ رفعه البراهمة إلى الوالي فقطع لسانه و أما ذكر الله و عمل البرّ و الصدقة فهو غير ممنوع عليه[35]." و أورد البيروني قصّة أحد ملوك البراهمة حين علم بأنّ أحد أفراد "جندال" (يتبع طبقة الشودر المنبوذة) تجاوز ما إلى طبقته فركب إليه و وجده على شطّ نهر الغانج المُقدّس يجتهد في العبادة و تهذيب النفس فضربه بالسهم و أرداه قتيلا ثمّ قال :" هو ذا؟ أقتلك على خير ليس إليك فعله[36]." ولنلاحظ هنا كيف يُشكّل رجال الدين تميزهم عن باقي الطبقات بفضل معرفتهم الدينية وتميّزهم في الالتزام بالتعاليم و الأحكام والعبادات الدينية التي اكتسبوها وحرصوا على امتلاكها.

* توارث المنزلة الاجتماعية لدى البراهمة:

ويتابع البراهمة حسب ما أفادنا به البيروني صعودهم و ارتقائهم في السلم الاجتماعي غير ان وضعهم الاجتماعي ينتقل بالوراثة وهو ما أفضى إلى تمايز حاد و صلب بينهم وبين الطبقات الثلاث، حتّى وصل هذا التمايز إلى حدّ أنّ أي طبقة لا يستطيعُ أعضاؤها أن يصطفّوا في المُؤاكلة مع أفراد طبقة أخرى مختلفة عنهم " وكلّ طبقة من الأربع فإنها تصطفّ في المؤاكلة على حدة ولا يشتمل صفّ على نفرين مختلفي الطبقة، فإن كان في صفّ البراهمة مثلا نفران منهم متنافران وتقارب مجلساهما فُرّق بين المجلسين بلوح يُوضع بينهما أو ثوب يُمدّ أو شيء آخر بل إن خُطّ بينهما تمايزا[37]."

* شروط زواج البراهمة والتمايز الطبقي:

ومن المجالات الاجتماعية الأخرى التي ترسخت فيها فكرة التمايز الطبقي الحاد في الهند ما تطرّق إليه البيروني في ذكر رسومهم في التزاوج، حيث يُؤكد على أن الرجل لا يتزوّج إلاّ من طائفته أو من طائفة أدنى منها، ولكن الرجل الذي يتزوج من واحدة من طبقة الشّودر يُصبح مفضوحا مهتوك الستر ويُطردُ من طائفته فلا يتزوّج نساء الشودر إلاّ رجال الشّودر ويمكن للبرهمن أن يتزوج إمرأة من الطبقة الكشتريّة (الطبقة الثانية) أو من طبقة البيش (الطبقة الثالثة) ولا عكس، أي لا يصحّ للمرأة التي تنتمي إلى طبقة عُليا أن تتزوج من طبقة أقل منها لأنها حينئذ تلدُ أولادا يرثون صفات أبيهم التي هي أقل من صفات طبقة أمّهم يقول

ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI : مجلد: 04 عدد: 08 السنة 2018

البيروني :" ويكون الولد منسوبا إلى طبقة الأم دون الأب فإذا كانت امرأة البرهمن مثلا برهمنا كان الولد كذلك وإن كانت شودرا كان شودرا، ولكنّ البراهمة في زماننا و إن حلّ لهم ذلك لا يفعلونه و لا يتجاوزون في التزويج غير طبقتهم[38].

* جنايات البرهمان وعقوباتها:

ومتعدّدة هي المفارقات الأخرى التي أوردها البيروني بين مختلف هذه الطوائف الهندوسية التي تبدوا بمظهرها شرعية وفي جوهرها قسريّةً أو تعسّفيّة بعض الشيء، فالبراهمة وبقية الطبقات الثلاث لا يتساوون في أمور العقوبات و الكفّارات و الأحكام الشرعية، يتحدث أبو الريحان عن عقوبة القتل في شريعتهم مُؤكّدا أنه ثمّة هُوّةً شاسعة في حكم القاتل، فإن كان القاتل من طبقة البراهمة و المقتول من سائر الطبقات فإن حكم البرهمن كفّارة وهي تكون بالصوم و الصلاة و الصدقة وإن كان المقتول من طبقة البراهمة والقاتل من سائر الطبقات أحيل أمر القاتل إلى الآخرة و لم تُجزه الكفّارة " لأن الكفّارة تمحو الذنوب وليس شيء يمحو من قاتل البرهمن كبائر الأثام و عظماها قتل البرهمن[39]." أمّا فيما يتعلّق بعقوبة السرقة في دعاويهم و أحكامهم فإنّها تُقدر حسب مقدارها و تتراوح بين القتل و التنكيل و التأديب و الغرامة و الفضيحة والتشهيرُ. فإن كانت قيمة المسروق كبيرة والسارق من طبقة البراهمة سمُل الولاّة هذا البرهمن أو قطعوه من خلاف و إن كان السارق كشتريّا قطعوه من خلاف و لم يسمُلوه و إن كان السارق من سائر الطبقات فحكمه القتل[40].

* نظام الطبقات مخالف للعقل و مجلبة للسّخرية:

وقد اختلفت عباراتهم في الخلاص الذي هو أعلى الدرجات ثوابا : أهو خاصّ بالبراهمة فقط أم يعُمّ جميع الطبقات ؟ فبعضهم يمنع من الخلاص الطبقتين السفليين ولكنّ الأكثرين اتفقوا على أن الخلاص ثواب الجميع وقد قال الحكيم "باسديو" في طالب الخلاص :" إن العقل قد سوّى عنده البراهمة وجندال و الصديق و العدوّ و الأمين و الخائن و الحيةُ وابن عرس، فإن كان العقل هو الذي سوى فالجهل هو الذي فصّل و فضّل[41]."

إنّ أهم ما يمكن أن نستخلصه في هذا السياق هو هيمنة وسيطرة طبقة البراهمة نخبة المجتمع وصفوته وتميّزها بنفوذها الكبير عن الحياة الاجتماعية الدينية في المجتمع الهندوسي . وهذا التصوّر الانشطاري للمجتمع اتخذ منه أبو الريحان البيروني موقف الناقد البصير معتبرا نظام الطبقات هذا نظاما مخالفا للعقل ومجلبة للسّخرية "وهذه كلّها تفاضل

ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI : مجلد: 04 عدد: 08 السنة 2018

الدرجات التي يتّخذ فيها بعضهم لبعض سُخريا... فإنّ طباعهم عن الطرق العقلية نافرة وانّما يستعملون قهرا حتى يعملوا بحسب ما يُثير لهم حواسهم من الشهوة و الغضب ويكون العاقل العارف على خلافهم[42]."

* موضوع الطبقات في ضوء علم الأنثروبولوجيا:

قد استقطب موضوع الطبقات في الهند جهود الباحثين و الدارسين في مختلف الاختصاصات و الميادين. وهو ما سيجعلنا نقف عند آخر ما توصّل إليه العلم الأنثروبولوجي الحديث وسنرصد بالتحديد نظرية عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي لويس دومون (1911-1998) Louis Dumont[43] الذي قدم لنا من خلال أبحاثه الميدانية و أطروحاته التصور الشمولي للقيم الخاصة بالمجتمع الهندي وكيفية انتظام الطوائف الدينية وتراتبها.

* التراتبية الدينية: البراهمان كهنوت ملكي

قدّم لويس دومون دراسة لتطور نظام الكاست في الهند وعلاقتها بالنسق التراتبي الاجتماعي وكذلك علاقة هذا النسق بالنظام الديني الذي يُنظر إليه بصفته كينونة كونية الطابع تشمل الجوانب الاقتصادية والسياسية معا. وأظهر دومون مقدرة مُتميزة من خلال عمله الأنثروبولوجي حول الإنسان التراتبي واتّخذه مدخلا لتفكيك بنية المجتمع الهندي وثقافته معتمدا في ذلك على النصوص المقدسة وعلى التاريخ و الأبحاث الأخيرة المنجزة حول الكاست التي تناولها بالنقد. حيث اعتبر دومون أن الأنتروبولوجيين الذين سبقوه في دراسة نظام الكاست في الهند قد عكسوا أفكارهم حول هذا النظام و ما يقوم عليه من قيم معتبرا أن نظرياتهم لم تتجاوز حد المفهوم السطحي لنظام الكاست كونه نظاما قبليا أكثر منه نظاما مؤسساتيا[44].

يعتبر دومون أن نظام الكاست في الهند هو نظام تراتبي بامتياز و يعرّف التراتبية في قوله :" هي مبدأ تدرج عناصر مجموع ما بالنسبة إلى هذا المجموع مع التسليم بأن الدين يشكل الرؤية العامة لأغلب المجتمعات وبأن التدرج هنا يُمسي ذا طبيعة دينية[45]." فالتراتبية الدينية في نظره لابد أن ينظر إليها بصفتها تراتبية طقوسية مبنيّة على ثنائيتي الطهارة و الدّناسة وأعطى الأولوية المطلقة في دراسته للمكانة الطقوسية في نظام الكاست. فقد قضت الهندوسية طيلة عصورها أن يُوكل إلى البراهمة دون سواهم الوظائف الكهنوتيّة التي تفرضها كتبهم المقدسة وخاصّة الفيدا Véda حيث ترتكز حياتهم و ممارساتهم الدينية على التضحية

ISSN: 2437-041X
DOI :

كما لا تجوز الذبائح الطقوسية إلاّ في حضرتهم وعلى أيديهم باعتبارهم كهنوت ملكي لا يتدنّسُ بلمس الخلائق الوضعية ومن هنا يبرز مفهوم الصفاء و النقاء اللذان يتميّز بهما البرهمن عن سائر المخلوقات[46].

وقد كان للويس دومون الفضل في تأسيسه علم الاجتماع المقارن الذي يتناسب مع الحداثة وكرّس عمله لدراسة الإيديولوجيا و دراسة القيم الخاصة للمجتمعين الهندوسي والمسيحي وعقد بين هذين العالمين مقارنة تهم بالأساس الجانب القيمي للفرد داخل المجتمع مركزا على دوره في نحت كيانه و رغباته كقيمة مستقلة وهو ما يحقق مفهوم الفردانية L'individualism[47].ولا يخفي دومون انتصاره للفرد المسيحي على حساب الفرد الهندوسي من الناحية الذاتية ووجد أنه منذ القرن الثالث عشر للميلاد أدى تطوّر المسيحية إلى ميلاد مفهوم الذات ليعزز ذلك من الفردانية و ينقلها من خارج العالم إلى داخل العالم لتأخذ الأيديولوجيا في الوضع الحديث منحى يُعزز الذاتية. وتصبّ الذاتية في الوقت نفسه في فاعل جماعي يٌؤسس لبرامج مطلبية اجتماعية و سياسية و دينية ولكي يُحدد مفهوم الفردانية فإن دومون يُقابلها بالحالة التي تكون عليها الذات الاجتماعية في الأنظمة التراتبية كالهندوسية حيث أن الفرد مُنقاد عبر مركبات اجتماعية اديولوجية ماصّة لفرديته و لا يتردد دومون في كتابة ما يلي :" إن ما لم تستطع أي ديانة هندية بلوغه بلوغا كاملا وهو موجود منذ البدأ في المسيحية إنما يكمن في الأخويّة النابعة من المحبّة التي تُمثل في يسوع المسيح و الأخويّة بين كل الناس وما ينتج عنها من مساواة بين الجميع وهي مساواة لا وجود خالصا لها إلاّ في حضرة الله وإن اعتمدنا مصطلحات علم الاجتماع فإن في تحرّر الفرد عبر اعتبار كينونته الشخصيّة قيمة مُطلقة أو اتّحاد الفرد خارج العالم بجماعة تمشي على الأرض وإن أبقت قلبها مُعلّقا بالسماء هذا يكون ربّما صيغة تحديديّة مقبولة للمسيحية[48]."

* التراتبية والجماعية والفردية في الهندوسية والمسيحيّة:

ثمّ يبيّن دومون أنه إذا كانت الحضارة الهندية تتصف بسيادة مفهوم التراتبيّة وبإيديولوجيا جماعية فإن قيم المساواة والنزعة إلى الفردية تسيطر في المقابل على الغرب الحديث حيث نظرت المسيحية منذ بداياتها إلى الانسان على أنه فرد تربطه علاقة داخلية بالله قبل أي علاقة أخرى ثم يسعى إلى الخلاص من خلال السمو الذاتي، في هذه العلاقة مع الله تترسّخ قيمة الانسان كفرد ممّا يُحتّم في المقابل انحطاط العالم أو انحدار قيمته. فضلا عن ذلك يملك الفرد كما سائر البشر روحا فردية تطرح المساواة و الفردية اذ أن البشريّة

جمعاء تتشاطر القيمة المطلقة التي تُعطي الروح الفردية بفضل علاقة البُنوّة مع الله[49]. وهذه الخصائص و الميزات الفردانية التي ذكرها دومون في المسيحية تكاد تكون مُغيّبة تماما في النظام التراتبي الهندوسي ونقصد بذلك غياب الفردانية و الاستقلالية، يُعلّق الأستاذ فؤاد خليل على كلام لويس دومون في قوله :" لقد منعت هذه التراتبيّة الفرد من أن يختار عمله وبالتالي الطائفة التي ينتمي إليها وذلك يعود لعدم الاعتراف بالذاتيّة الداخليّة على أنّها أمر مستقل وإذا كانت التمييزات تجدُ طريقها للظهور فإن الاعتراف بها يُصاحبه اعتقاد بأن الفرد لا يختارها لنفسه وبنفسه لكنّه يتلقّاها من الطبيعة وعلى هذا النحو يتجلّى أيضا انعدام استقلال الذات الفردية الهندية سواء أكان الأمر يتعلّق بالجانب الأخلاقي أم بالدين أم بالتجارة أم بالسياسة[50]."

إنّ أهم فكرة يمكن أن نخرج بها في نهاية هذا العنصر هو أنّ المجتمع الهندوسي مجتمع تراتبي وطبقي بامتياز. والشواهد التي قدّما البيروني في مُصنّفه هي خير آية على ذلك، وأنّ هذا النظام التراتبي شكّل محور اهتمام العديد من علماء الاجتماع الذين انتسبوا إلى الحداثة و أبرزهم لويس دومون الذي أراد تطبيق قواعد علم اجتماع مقارن يتناسب مع الحداثة و درس طبقات الهند مُحلّلا إيّاها على ضوء فرضيات ايديولوجيا المساواة وهو ما يجعل دراسته محدودة الطابع أي أنّه تعسّف على الايديولوجيا الهندية وربّما نسي أن انتماء الفرد إلى طبقة محددة في الهند لا يأتي عن طريق الصدفة ولكن لأن إيمانه الداخلي هو السبب وراء هذا الانتماء ولذلك نجد أن الهندوسي حاول دائما معالجة الأخطاء التي ربّما يكون قد قام بها لكن هذا لا يشفع له من أجل الانتقال إلى طبقة أخرى وهذا في نفس الوقت لا يُؤثّر على الأفراد لأن لديهم الإيمان القوي بأنّهم يستحقّون الانتماء إلى طبقتهم وهذا أيضا ما يُفسّر طابع الوفاء الذي ساد داخل أعضاء الهندوسية[51].

الهوامش

[1]بطرس، البستاني، محيط المحيط (قاموس مطوّل للغة العربية)، لبنان، مكتبة لبنان، د.ت، ص 908.

[2] Noah, Webster, New twentieth century Dictionary ,second edition, Unabridge (hard cover) 1970, p334 .

[3] أسعد، زورق، موسوعة علم النفس، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات و النشر،1979،ص 250.

[4] عبد المنعم، الحنفي، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، ط4، مصر،مكتبة مدبولي، 1994، ص 308.

[5] أحمد طاهر، مسعود، المدخل إلى علم الاجتماع العام، ط1، عمان الأردن، دار جليس الزمان للنشر والتوزيع، 2011، ص 97-98

[6] أبو الريحان، البيروني، في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، تحقيق إدوارد سخاو، الهند، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدّكن، 1905، ص 76

[7] جون، كولر، الفكر الشرقي القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، ط1، الكويت، ضمن سلسلة عالم المعرفة، 1995، ص 74.

[8] البيروني، المصدر نفسه، ص 78.

[9] البيروني، المصدر نفسه، ص 452.

[10]'Dharma is a Sanskrit expression of the widest import. There is no corresponding word in any other language. It would. also be futile to attempt to give any definition of the word. It can only be explained. It has a wide variety of meanings. A few of them would enable us to understand the range of that expression. For instance, the word 'Dharma' is used to mean Justice , what is right in a given circumstance, moral values of life, pious obligations of individuals, righteous conduct in every sphere of activity, being helpful to other living beings, giving charity to individuals in need of it or to a public cause or alms to the needy, natural qualities or characteristics or properties of living beings and things, duty and law as also constitutional law. **(M.Rama Jois, Dharma the global ethic,Punjab,1992,p 5).**

[11] البيروني، المصدر نفسه، ص 452.

[12] سليم، شاكر، قاموس الأنثروبولوجيا (انجليزي-عربي)، ط1، الكويت، جامعة الكويت، 1981، ص 337-338.

[13] البيروني، المصدر نفسه، ص 453.

[14] البيروني، المصدر نفسه، ص 453.

ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI : مجلد: 04 عدد: 08 السنة 2018

[15] Weber,Max,The religion of India : The sociology of Hinduism and Buddhism,the united state of America,the free press,1958,p 58.

[16] البيروني، المصدر نفسه، ص 453.

[17] البيروني، المصدر نفسه، ص 454.

[18] البيروني، المصدر نفسه، ص 454.

[19] « Brahmanical activities consisted of sacrifice and instruction. Brahmans were economically bound so rigidly and visibly by etiquette that they could not use their personal services to earn their livelihoods in the manner of a vocation. The Brahman accepted only gifts, not pay. The giving of gifts brought evil enchantement; moreover, his magical power enabled the Brahman to avenge severely the denial of gifts by curses or intentional ritualistic errors in the performance of the sacrifice. Bringing misfortune to the lord of the sacrifice." **(Weber,Max,The religion of India: the sociology of Hinduism and Buddhism, p 60.)**

[20] البيروني، المصدر نفسه، ص 454.

[21] البيروني، المصدر نفسه، ص 454.

[22] البيروني، المصدر نفسه،ص455.

[23] البيروني، المصدر نفسه،ص455.

[24] **الموكشا Moksa** هو مصطلح يُستخدم في الديانات و الفلسفة الهندية ويعني الانعتاق أو التحرر أو الاطلاق (The exford dictionary...) ويرى المُؤرخ كيدار ناث تيواري Kedar Nath Tiwari (1936-1967) أن الحياة في الهندوسية لا تُعطى لها أهمية كبرى و أن الموكشا هي أعلى الدرجات في سلّم الحياة الهندوسي ويصل إلى تعريف محدد لها، فالموكشا في نظره هي حالة من الهدوء يعيشها الفرد في فسيح الجنة و النعيم وهي بمثابة الحد من كل المعانات و الألم التي هي مسكن أبدي في القرب إلى الله

يُنظر إلى :

Bowker, John, The oxford dictionary of world religions ,Oxford, university press,1997,p 650.

Tiwari, Kedar Nath, classical Indian Ethical thought (a philosophical study of hindu, Jaina and Baudha morals) ,Delhi,first edition,1998,p 159.

[25] البيروني، المصدر نفسه، ص 78.

[26] البيروني، المصدر نفسه، ص 79.

[27] البيروني، المصدر نفسه، ص 79.

[28] البيروني، المصدر نفسه، ص 78.

[29] البيروني، المصدر نفسه، ص 78.

[30] إدوارد، لوس، على الرغم من الألهة: النهوض الغريب للهند الحديثة، تعريب معين الإمام، ط1، المملكة العربية السعودية، العبيكان للنشر، 2009، ص119. 120.

[31] **الطبقة المغلقة (Caste)**: هي عبارة عن جماعة مغلقة اجتماعيّاً قوامها الوراثة أو الولاء، وهي عادة ما تنبني على أساس ديني وينعدم فيها الحراك الاجتماعي. ومن أبرز الأمثلة عليها نموذج الريغ- فيرا السائد في الهند، فهذا النصّ المؤسّس للديانة الهنديّة يقرّ بأنّ نظام العالم تولّد عن التضحية التي قدّمها بوروث الإنسان الكوني، ومنه كانت الطوائف الهنديّة المغلقة الأربع: فمن فمه كانت طائفة البراهمة الكهنوتيّة المغلقة العليا، ومن ذراعيه ولدت طائفة المحاربين والقادة، ومن فخذيه كانت طائفة المنتجين، وهم التجّار والفلاّحون والحرفيّون، ومن رجليه تولّد الخدم العبيد. فكلّ طائفة لها وظيفة اجتماعيّة محدّدة تتناسب معها. وقد قدّمت البحوث الإتنولوجيّة تصوّراً مختلفاً للطائفة المغلقة استناداً إلى تقسيم أكثر دقّة للمجتمع الهندي، وهو تقسيم (Jati)؛ فالطائفة المغلقة "جاتي" تنسجم مع وضعيّة شاملة مرتبطة بوظيفة معيّنة، مثل طائفة الحدّادين، والخيّاطين، والحلاّقين... وهي داخليّة التزاوج، والانتماء إليها يكون بالوراثة، فمثلما يولد الفرد يبقى طوال حياته. ولهذه الطوائف تصنيف تراتبي.

يُنظر إلى :

أحمد زكي، بدوي، المرجع السابق،ص 53.

جون فرنسوا، دورتيه، المرجع السابق،ص 358-359.

[32] فؤاد، خليل، الماركسية في البحث النقدي: الراهنية، التاريخ، النسق، ط1، بيروت، لبنان، دار الفارابي، 2010، ص 120.

[33] البيروني، المصدر نفسه، ص 76-77.

[34] يشكل مفهوم النُّخبة منطلقا منهجيا في كل فهم حصيف لحركة التاريخ الإنساني وما يعتمل فيه من صيرورات وأحداث، ويعوّل عليه كثير من المفكرين في مقاربة التكوينات السوسيولوجية للمجتمع، والخوض في عمق الظواهر الأيديولوجية للحياة السياسية الطبقية في سياق تفاعلها وتكاملها. فالتاريخ الإنساني بما ينطوي عليه من تعقيدات، وما يكتنفه من صيرورات لا يمكنه أن

يُرصد ويحلل ويفهم دون الخوض المعمق في دور النخب التي تحرك المجتمع الإنساني وتتحرك فيه في الآن الواحد لتشكل بفعاليتها ملمحا جوهريا من ملامح الحركة التاريخية في المجتمعات الإنسانية. وضمن هذا التصور فإن اي محاولة لفهم ديناميات الواقع الاجتماعي، وصيرورة الحركة التاريخية، لن تفلح ما لم تنطلق من فهم عميق للدور التاريخي الهائل الذي تمارسه النُّخب في توجيه الحياة الاجتماعية في مختلف تعيناتها وفي شتى تجلياتها. فالنُّخب - كما يراهن كثير من المفكرين والمنظرين - تصنع التاريخ الإنساني، تحركه وتحدد صيرورته، وترسم ملامح التغير الاجتماعي، وتمارس دورها الفعال في توجيه الحياة الاجتماعية في مختلف تجلياتها.

يُنظر في هذا الصدد إلى : **علي أسعد،وطفة، في مفهوم النخبة: مقاربة بنائيّة (مقال على موقع أنفاس من أجل الثقافة الانسانيّة)**

أنظر الرابط التالي :

http://anfasse.org/index.php/2010-12-30-16-04-13/2010-12-05-17-29-12/5842-2015-01-24-15-35-56

[35] البيروني، المصدر نفسه، ص 457.

[36] البيروني، المصدر نفسه، ص 458.

[37] البيروني، المصدر نفسه، ص 78.

[38] البيروني، المصدر نفسه، ص 470-471.

[39] البيروني، المصدر نفسه، ص 474-475.

[40] البيروني، المصدر نفسه، ص 475.

[41] البيروني، المصدر نفسه، ص 458.

[42] البيروني، المصدر نفسه، ص 458-459.

[43] لويس دومون Louis Dumont :هو أنثروبولوجي فرنسي ولد في سالونيك (اليونان) عام 1911،تابع دروسه في باريس وبالتحديد في معهد الأثنولوجيا. مهتم بالفنون و التقاليد الشعبية والدراسات الدينية (المسيحية-الهندوسية).تعلّم اللغة السنسكريتيّة وسافر إلى جنوب الهند عام 1948 فقدّمت له أبحاثه الميدانية لدى شعب "برامالاي كالار" المادة الأساسية لتحضير أطروحة دكتوراه دولة حول طائفة من جنوب الهند عام 1957 وكان متابعا لأبحاث عن القرابة و النسب في الهند يُنظر إلى : بيار، بونت & ميشال، ايزال، معجم الإثنولوجيا و الأنتروبولوجيا، ترجمة دكتور مصباح الصمد، ط2،بيروت، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع "مجد"، 2011، ص 480.

[44] Rajagopalan,Manasvin,Acritical under standing of Louis Dumont's hierarchy, status and power : The caste system and its implications,essay,p 1-2.

[45] Dumont,Louis,Homo hierarchicus : the caste system and its implications,London,the university of Chicago press,1970,p 21-22.

[46] « If one is looking for the vedic antencedents of brahmanic practices, one will naturally find the mat the level of the ritual of sacrifice,both because this is what the vedic texts tell us about, and because religion of sacrifice necessarily involves purifications. » **(Dumont,Louis,Homo hierarchicus : the caste system and its implications, p 385.)**

[47] كان كارل غوستاف يونغ(1857-1961) C.G.Jung قد استعار هذا المصطلح الذي استخدمه الفلاسفة في العصور الوسطى للدلالة على المبدأ الذي يجعل موجودا يتميّز من كل الموجودات الأخرى من النوع نفسه ليميز تحقيق المرء ذاته. وينمو الموجود الانساني حسب يونغ نموّا بطيئا بالتمايز السيكولوجي البيولوجي التدويجي و ينتهي إلى أن يصبح موجودا مركبا متناغما ذا قرار حر مستقل ويتكلم يونغ على تحقيق الذات بوصفها كيانا يشمل الشعور و اللاّ شعور على عكس الأنانية. فالفردانية هي صيرورة المرء فردا، هي الخاصية الصميمية الفريدة والنهائية التي لا تضاهي بلوغ المرء ذاته.

يُنظر إلى :

Jung,C.G,Two essays on analytical psychology,second edition,translated by R.F.C.Hull,London,Routledge,1966,p173-174

[48] لويس، دومون، مقالات في الفردانيّة : منظور أنثروبولوجي للأيديولوجية الحديثة، ترجمة بدر الدين عردوكي، ط1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2006 ،ص 48.

[49] Dumont,Louis,Homo hierarchicus : the caste system and its implications,p 264-265.

[50] فؤاد، خليل، المرجع السابق، ص 121.

[51] إكرام، عدنني، سيسيولوجيا الدين و السياسة عند ماكس فيبر، ط1، بيروت، منتدى المعارف، 2013 ،ص 223-224.